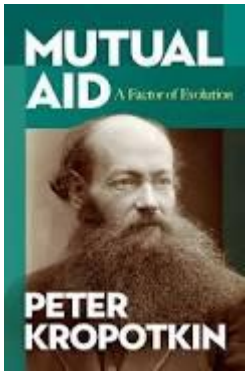

تيد تْرينَر*: مقتطفات من كتاب كروبوتكين الرائع "المساعدة المتبادلة"

العنوان الأصلي للورقة:
Notes from Kropotkin's remarkable book *Mutual Aid*.

ترجمة: مصباح كمال

من المُدهش والمُخيب للآمال أن هذا الكتاب[1] لا يحظى باهتمام يُذكر اليوم. فهو يُقدّم حجةً قوية تُفيد بأن الحيوانات عمومًا اجتماعية ومتعاونة في الغالب، وخاصة البشر، وأن العامل الأهم الذي يُحركنا هو المُساعدة المُتبادلة.

إنه كتاب طويلٌ، مُكتظٌ بكمية هائلة من الأدلة السلوكية، بدءًا من الحشرات، وبعدها جميع أنواع الحيوانات والبشر والمجتمعات المختلفة والتاريخ، وخاصةً النقابات في العصور الوسطى. معرفة كروبوتكين واسعة، ويتجلى ذلك في الحواشي العديدة. نُشرت النسخ

[1] العنوان الكامل لكتاب كروبوتكين Pyotr Kropotkin (1842-1921) هو **المساعدة المتبادلة: عامل من عوامل التطور**، نشر سنة 1902. Mutual Aid: A Factor of Evolution (New York: McClure Phillips & Co, 1902)

لا تضم ورقة الكاتب المراجع التي استخدمها.

جميع الهوامش من وضع المترجم. استفدت من مراجع مختلفة لترجمة وشرح بعض الكلمات.

الأولى من محتويات الكتاب حوالي عام 1890.[2] تُعتبر الأطروحات العامة المتعلقة بالمُساعدة المُتبادلة mutual aid والإيثار altruism في الطبيعة صحيحة حتى يومنا هذا، وهو ما يؤكده، على سبيل المثل، ستيفن جيه گولد[3] Stephen J Gould.

يتأسف كروبوتكين على هيمنة النظرة الهوبزية Hobbesian [نسبة إلى الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز، 1588-1679] على طريقة التفكير عند البشر، والتي ترى أن البشر فرديون وتنافسيون وعدوانيون بشكل لا رجعة فيه، ويجب السيطرة عليهم لتجنب الفوضى. وقد تبنى العديد من الداروينيين هذا الرأي، ولا سيما هكسلي[4] Huxley. لكن كروبوتكين يجادل بأن الأهم في طبيعتنا وتطورنا وأشكالنا الاجتماعية هو ميلنا القوي والراسخ للتعاون والاهتمام ببعضنا البعض ومساعدة بعضنا البعض والاستمتاع بالتفاعل الاجتماعي.

ويوثق كروبوتكين هذه الميول بإسهاب، بدءًا من الحشرات إذ يقول: فيما يتعلق بـ "...أصل شعور أو غريزة المساعدة المتبادلة... يجب أن نتتبع وجودها إلى أدنى مراحل عالم الحيوان؛ ومن هذه المراحل يمكننا تتبع تطورها المتواصل." وقد تأثر بشدة بمحاضرة ألقاها كيسلر[5] عام 1880، قال فيها: "جميع أصناف الحيوانات، وخاصةً العليا منها، تمارس المساعدة المتبادلة."

---

[2] نشرت كمقالات في السنوات 1890-1896 في المجلة البريطانية *The Nineteenth Century*

[3] (1941-2002) من الشخصيات الأمريكية البارزة في حقل علم الأحياء التطوري وعلم الحفريات، وفي دفاعه وترويجه للعلم وتقريبه من أذهان الناس. ساهم من خلال مؤلفاته ومحاضراته وعمله في تغيير النظرة للتطور ودحض نظرية الخليقة creationism التوراتية. واشتهر بقدرته على جعل الأفكار المعقدة في متناول اليد وجذابة.

[4] توماس هكسلي Thomas Huxley (1825-1895)عالم أحياء وأنثروبولوجيا إنجليزي، متخصص في علم التشريح المقارن. وقد عُرف بـ"كلب داروين" لحماسته ومناصرته نظرية التطور لتشارلز داروين.

[5] Karl Fedorovich Kessler (1815–1881) عالم حيوان ألماني من منطقة البلطيق، قدّم مساهماتٍ قيّمة في علم الأحياء التطوري، وعلم الأسماك، وعلم الطيور. وهو الذي اقترح أن المساعدة المتبادلة، لا التنافس، هي القوة الدافعة للتطور — وهو المفهوم الذي وسّعه لاحقًا بيتر كروبوتكين في كتابه "المساعدة المتبادلة: عاملٌ من عوامل التطور"، موضوع هذه الورقة.

قد لا يحتاج السلوك التعاوني للنمل والنحل إلى توضيح، ولكن ماذا عن أنواع الخنافس التي تُساعد خنفساءً مقلوبةً على ظهرها عاجزةً عن تصحيح وضعها وتتعاون لتصحيحه؟ يُوثّق كروبوتكين سلوكًا مشابهًا لدى الكائنات "البسيطة." ويُشير إلى أن بعض الأنواع أكثر فرديةً من غيرها. ومع ذلك، فإن الثدييات هي التي "يسود فيها التعاون والمساعدة المتبادلة... ونجد، خاصةً لدى القوارض، وذوات الحوافر، والمجترات، ممارسةً متطورةً للمساعدة المتبادلة."

"نعلم في الوقت الحاضر أن جميع الحيوانات، بدءًا من النمل، مرورًا بالطيور، وانتهاءً بأرقى الثدييات، مولعة بالألعاب والمصارعة والجري وراء بعضها البعض ومحاولة الإمساك ومضايقة بعضها البعض، وما إلى ذلك. وبينما تُعدّ العديد من الألعاب، إن صح التعبير، مدرسةً للسلوك السليم للصغار في مرحلة البلوغ، هناك ألعاب أخرى، إلى جانب أغراضها النفعية، تُعدّ، إلى جانب الرقص والغناء، مجرد تجلياتٍ لقوةٍ فائضة — "متعة الحياة"، ورغبةٍ في التواصل بطريقةٍ أو بأخرى مع أفرادٍ آخرين من نفس النوع أو من نوع آخر — باختصار، هي مظهرٌ من مظاهر *التواصل الاجتماعي الأصيل*، وهو سمةٌ مميزةٌ لعالم الحيوان بأكمله."

ليس من الصعب إدراك الأهمية التطورية.

"...الحيوانات التي تُجيد التآلف هي الأقدر على البقاء والتطور. ... وبالتالي، فإن الأصلح هي أكثر الحيوانات اجتماعية، ويبدو أن الاختلاط الاجتماعي هو العامل الرئيسي للتطور..." تجدر الإشارة إلى أن ما يهم هو بقاء النوع، وأن التنافس بين أفراد النوع الواحد قد يكون ضارًا في هذا الصدد."

لحسن الحظ، ان المنافسة ليست القاعدة لا في عالم الحيوان ولا عند البشر. إنها تقتصر بين الحيوانات على فترات استثنائية، ويجد الانتقاء الطبيعي مجالات أفضل لنشاطه. فالظروف الأفضل تنشأ من خلال *القضاء على المنافسة* عن طريق المساعدة والدعم المتبادلين. في الصراع الكبير من أجل الحياة — من أجل أقصى قدْرٍ ممكن من غنى الحياة وشدّتها مع أقل قدر من إهدار الطاقة — يبحث الانتقاء

الطبيعي باستمرار عن سبل لتجنب المنافسة قدر الإمكان. تتجمع النمل في أعشاشها وتجمعاتها؛ تُكدس مخازنها، وتربي حشرات المَنّ rear their cattle — وبالتالي تتجنب المنافسة؛ ويختار الانتقاء الطبيعي من بين فصيلة النمل النوع الأقدر على تجنب المنافسة، مع عواقبها الضارة التي لا مفر منها.

" ... في المدى البعيد، يُثبتُ التمرُّس على التضامن أنه أكثر فائدةً للنوع species من تنمية الأفراد الذين يتمتعون بميولٍ افتراسية. فالأكثر مكرًا ودهاءً يُستبعد لصالح من يدركون مزايا الحياة الاجتماعية والدعم المتبادل.

"المساعدة المتبادلة قانونٌ من قوانين الطبيعة، تمامًا كما هو الحال في النضال المتبادل."

"لا تتنافسوا — فالتنافس دائمًا يضرّ بالنوع، ولديكم موارد وفيرة لتجنبه ... " لذا تضافروا — مارسوا التعاون المتبادل! فهذه أضمن وسيلة لمنح الجميع أعظم درجات الأمان، وأفضل ضمان للوجود والتقدم، جسديًا وفكريًا وأخلاقيًا. هذا ما تعلمناه من الطبيعة..."

"كم هي قليلة الأنواع الحيوانية التي تعيش حياة منعزلة، وكم هي تلك الأنواع التي لا تُحصى التي تعيش في مجتمعات، إما للدفاع المتبادل، أو للصيد وتخزين الطعام، أو لتربية ذريتها، أو لمجرد الاستمتاع بالحياة المشتركة. ... تلك الأنواع التي تعرف بشكل أفضل كيفية الاتحاد، وتجنب المنافسة، لديها أفضل فرص البقاء والتطور التدريجي."

"... على المدى الطويل، أثبتت ممارسة التضامن أنها أكثر فائدة للأنواع من تطور الأفراد ذوي الميول الافتراسية."

الأهمية بالنسبة للعدالة والمساواة والقانون والذكاء وحل المشاكل والثقافة والتقدم والرحمة والأخلاق.

يناقش كروبوتكين بشكل مقنع أن التبادلية تنطوي على نوع من الاهتمام بالآخر، والرغبة في التمتع بصحبة الآخرين، والاستعداد لمساعدة الآخر، والاهتمام برؤية الآخر وهو يُعاملُ بشكل عادل، وقد أدى هذا إلى الاهتمام بالأخلاق والقانون.

"إنَّ الاختلاط الاجتماعي والتبادلية يُضفيان شعورًا بالعدالة والإنصاف... وتنمو مشاعر العدالة، إلى حدٍّ ما، لدى جميع الحيوانات الاجتماعية.... فإذا قصد عصفور كسول الاستيلاء على العش الذي يبنيه رفيق، أو حتى سرق منه بضع قش، تتدخل المجموعة ضد الرفيق الكسول..."

"لدينا عدد من الحقائق المؤكدة جيدًا عن التعاطف بين الحيوانات البرية الحرة. ... تتمتع قصة جيه سي وود J.C. Wood عن ابن عرس weasel الذي جاء لالتقاط رفيق مصاب وحمله بشعبية مستحقة. وكذلك ملاحظة الكابتن ستانسبيري[6] Captain Stansbury في رحلته إلى يوتا Utah والتي استشهد بها داروين؛ فقد رأى طائر بجع أعمى كان يُطعَمُ، ويطعم جيدًا، من قبل طيور بجع أخرى بالأسماك التي كان يجب إحضارها من مسافة ثلاثين ميلاً."

"أما بالنسبة لوقائع التعاطف مع الرفاق الجرحى، فهي تُذكر باستمرار من قِبل جميع علماء الحيوان الميدانيين. هذه الحقائق بديهية. فالتعاطف compassion نتيجة ضرورية للحياة الاجتماعية. لكن التعاطف يعني أيضًا تقدمًا ملحوظًا في الذكاء العام ورهافة الشعور. إنه الخطوة الأولى نحو تنمية المشاعر الأخلاقية السامية."

يُنتجُ هذا العامل ترتيباتٍ وقائية للفرد. ويُفصّل ذلك في نقاشه المُطوّل حول مدن العصور الوسطى حيث كان الجميع يعتبرون أنفسهم إخوةً وأخوات.

[6] الكابتن هوارد ستانسبري (1806–1863) كان مهندسًا ومستكشفًا في جيش الولايات المتحدة، اشتهر بمسحه التاريخي لبحيرة الملح الكبرى Great Salt Lake والمناطق المحيطة بها بين عامي 1849 و1851

علاوةً على ذلك، يُجادل كروبوتكين بأننا نتعامل هنا مع نزعةٍ تُمكّن من التقدم... لأنه يتعلق بالتعاون لإيجاد حلولٍ للمشاكل التي يختبرها الجميع... بما في ذلك بناء الكاتدرائيات القوطية gothic cathedrals. ويُوسّع هذا العامل ليشمل تحسيناتٍ في الترتيبات الاجتماعية. تنبع هذه التحسينات من ذلك الحرص الأساسي على المساعدة المتبادلة.

التاريخ، وصولاً إلى المدينة والنقابات في العصور الوسطى.

يتناول الفصل الثالث بالتفصيل التعاون بين "المتوحشين" "savages"، وخاصةً البرابرة السلتيين[7] Celtic، بما في ذلك ظهور "المؤسسة الأساسية"، القرية، بترتيباتها التي تتجاوز القبيلة أو العائلة الواحدة.

يُخصص الفصل مساحة واسعة لشرح نشأة وطبيعة وآليات عمل المدن والنقابات[8] guilds في العصور الوسطى. تُعدّ هذه أمثلةً مبهرةً للغاية على آليات عمل المجتمعات التي يقودها مبدأ المساعدة المتبادلة، وتُشكّل مصدر إلهامٍ لطوباويي اليوم. (يشرح كروبوتكين لاحقًا كيف دُمرت إنجازاتهم بظهور الدولة؛ انظر أدناه).

> "...نشأ مجتمع القرية، على أساس مفهومٍ مناطقي. هذه المؤسسة الجديدة، التي انبثقت طبيعيًا من سابقتها — العشيرة — أتاحت للبرابرة اجتياز فترة تاريخية مضطربة للغاية دون أن ينقسموا إلى عائلات معزولة كانت ستستسلم في صراع البقاء."

[7] مصطلح "البرابرة السلتيون" استخدمه الكُتّاب الإغريق والرومان القدماء لوصف شعوب السلت—غالبًا باعتبارهم محاربين متوحشين وغير متحضرين—رغم أن علم الآثار الحديث يكشف عن ثقافة أكثر تعقيدًا ورُقيًّا بكثير. كان السلت مجموعة من القبائل الهندوأوروبية نشأت في وسط أوروبا، وانتشرت عبر بلاد الغال (فرنسا الحديثة)، والجزر البريطانية، وإيبيريا، والبلقان.

[8] لا يضم العرض في هذه الورقة أي إشارة "للتأمين" الذي كان جزءًا من وظائف النقابات في العصور الوسطى في أوروبا. راجع بهذا الشأن ترجمتي لعرض كتاب **التأمين التبادلي: 1550-2015: من رفاهة النقابات وجمعيات الأخوة إلى شركات التأمين المتناهية الصغر المعاصرة**، موقع شبكة الاقتصاديين العراقيين: https://iraqieconomists.net/ar/wp-content/uploads/sites/2/2018/06/Mutual-Insurance-1.pdf

"لقد كانت فكرة الاعتماد على الذات والفيدرالية، وسيادة كل جماعة، وبناء الجسم السياسي من البسيط إلى المركب، الأفكار الرائدة في القرن الحادي عشر."

تدريجيًا، "بدأت حياة جديدة من الحرية تتطور داخل الأسوار المُحصّنة. وهكذا ولدت مدينة العصور الوسطى." "في القرنين العاشر والحادي عشر، عندما بدأت القرى والأسواق المحصنة، التي تُمثل "واحاتٍ عديدة وسط غابة الإقطاع،" بالتحرر من نير أسيادها، ووضعتْ تدريجيًا هيكل المدينة المستقبلي."

"مع تزايد تنوع المهن والحرف والفنون، ونمو التجارة في البلدان البعيدة، برزت الحاجة إلى شكل جديد من أشكال الاتحاد، وقد وفَّرت النقابات هذا العنصر الجديد الضروري." لقد لعبت هذه *النقابات* دورًا بالغ الأهمية في تحرير المدن.

يبدو أن هذه المدن والنقابات قد شكّلت ذروةً في تاريخ التبادلية. كانت النقابات عديدة ومعقدة، مدفوعةً بأخلاقيات تختلف تمامًا عن أخلاقنا، لا سيما بسبب الشعور العميق بالزمالة؛ فالنقابة "... *تعتبر جميع أعضائها إخوة وأخوات*."

"... كانت المدينة في العصور الوسطى... محاولةً لتنظيم اتحاد وثيق، على نطاق أوسع بكثير من مجتمع القرية، للمساعدة والدعم المتبادلين، وللاستهلاك والإنتاج، وللحياة الاجتماعية ككل، دون فرض قيود الدولة على الناس، بل مع منح حرية التعبير الكاملة للعبقرية الإبداعية لكل مجموعة من الأفراد في الفنون والحرف والعلوم والتجارة والتنظيم السياسي."

كانت للنقابة "... سلطة قضائية مستقلة، ولها قواتها العسكرية الخاصة، وجمعياتها العامة، وتقاليدها الخاصة في النضال والمجد glory والاستقلال، وعلاقاتها مع النقابات الأخرى في نفس المهنة في مدن أخرى: باختصار، كانت لها حياة عضوية كاملة لا يمكن أن تنجم إلا عن تكامل وظائفها الحيوية. عندما كانت المدينة تُستدعى لحمل السلاح، كانت النقابة تظهر كسرية منفصلة (شار) (*Schaar*)، مسلحة

بأسلحتها الخاصة (أو بنادقها الخاصة، التي زينتها النقابة ببراعة، في حقبة لاحقة)، تحت قيادة قادتها المنتخبين ذاتيًا. كانت، باختصار، وحدة مستقلة للاتحاد.

تأملوا في الفارق الشاسع بين العقلية التي قادت الاقتصاد وعقليتنا اليوم. وبهذا الصدد يشير كروبوتكين إلى:

"...المشاعر الأخوية العامة التي يجب أن تسود في النقابة؛ ...واللوائح المتعلقة بالسلطة القضائية الذاتية في حالات الخلافات التي تنشأ بين شقيقين، أو بين أخ وغريب؛ ثم تُعدّد الواجبات الاجتماعية للإخوة: إذا احترق منزل أحد الإخوة، أو فقد سفينته، أو عانى في رحلة حج، يجب على جميع الإخوة مساعدته. إذا مرض أخ مرضًا خطيرًا، يجب على شقيقين حراسته عند فراشه حتى يتعافى، وإذا مات، يجب على الإخوة دفنه — وهو أمرٌ بالغ الأهمية في أوقات الأوبئة — والمشي وراءه إلى الكنيسة والقبر. بعد وفاته، يجب عليهم إعالة أبنائه، إذا لزم الأمر؛ وغالبًا ما تصبح الأرملة أختًا للنقابة."

"كانت السلطة البحرية على متن السفينة للقبطان؛ ولكن، من أجل نجاح المشروع المشترك، اتفق جميع الرجال على متن السفينة، الأغنياء والفقراء، الربابنة والملاحون، القبطان والبحارة، على أن يكونوا متساوين في علاقاتهم المتبادلة، وأن يكونوا مجرد بشر، ملتزمين بمساعدة بعضهم البعض وتسوية نزاعاتهم المحتملة أمام قضاة ينتخبهم الجميع. وكذلك عندما اجتمع عدد من الحرفيين — بناؤون، نجارون، قاطعو أحجار، إلخ — لبناء كاتدرائية، مثلاً، كانوا جميعًا ينتمون إلى مدينة لها تنظيمها السياسي، وكل منهم ينتمي إلى حرفته الخاصة؛ لكنهم كانوا متحدين أيضًا بمهمتهم المشتركة، التي كانوا يعرفونها أكثر من أي شخص آخر، وانضموا إلى هيئة تجمعهم روابط أوثق، وإن كانت مؤقتة؛ وأسسوا النقابة لبناء الكاتدرائية."

"كانت هذه هي الأفكار السائدة لتلك الجمعيات التي غطت تدريجيًا كامل الحياة في العصور الوسطى. في الواقع، نحن نعرف النقابات بين جميع المهن الممكنة: نقابات الأقنان serfs، ونقابات الأحرار، ونقابات تضم الأقنان والأحرار على حد سواء؛

ونقابات أُنشئت لغرض محدد كالصيد أو صيد الأسماك أو رحلات تجارية، ثم انحلت عند تحقيق الغرض المحدد؛ ونقابات استمرت قرونًا في حرفة أو تجارة معينة."

"لذا فإننا لا نرى التجار والحرفيين والصيادين والفلاحين متحدين في النقابات فحسب؛ بل نرى أيضًا نقاباتٌ للكهنة والرسامين ومعلمي المدارس الابتدائية والجامعات، ونقاباتٌ لأداء مسرحية الآلام passion play، وبناء كنيسة، وتطوير "mystery"[9] مدرسة معينة للفنون أو الحرف، أو للترفيه الخاص — وحتى نقابات بين المتسولين والجلّادين والنساء الضائعات، وكلها منظمة على نفس المبدأ المزدوج للحكم الذاتي والدعم المتبادل."

لاحظ أهمية المآدب كحدثٍ لتوطيد العلاقات.

"كانت المأدبة المشتركة، مثل احتفالات مجالس الشعب folkmote القديمة — *mahl* or *malum*[10] — أو احتفالات Buryate aba[11] بورياتي آبا، أو احتفال الأبرشية وعشاء الحصاد، مجرد تأكيدٍ على الأخوة. كانت ترمز إلى الأوقات التي كان فيها كل شيء مشتركًا بين العشيرة. في هذا اليوم على الأقل، كان الجميع مُلكًا للجميع؛ فالجميع يجلس على نفس المائدة ويتناولون نفس الوجبة."

ويذكر كروبوتكين المزيد من التفاصيل عن آلية الاقتصاد؛

[9] في اللغة الإنجليزية في العصور الوسطى، كانت كلمة "mystery" تعني حرفة أو مهنة، مثل حرفة الخياطة أو النجارة. وتستخدم أيضًا في وصف ما يعرف بالـ passion play وهي دراما دينية تدور حوادثها حول حياة المسيح كانت تؤديها النقابات.

[10] مصطلحات تعنى بالتجمعات القبلية القديمة حيث يجتمع فيها أعضاء المجتمع لمناقشة الأمور واتخاذ القرارات ومشاركة وجبة الطعام.

[11] Buryate Aba البوريات شعب منغولي من سيبيريا، والـ Aba احتفال جماعي مشابه لاحتفالات *mahl* or *malum* غالبًا ما كان يتضمن ولائم وطقوسًا وتوطيدًا للروابط الاجتماعية. كان الأبا بمثابة رابط ثقافي يعزز القرابة والمساعدة المتبادلة.

"كان لا بد من عرض كل شيء في السوق مقابل كل عملية شراء، حتى يُقرع الجرس معلنًا إغلاق السوق. حينها فقط يستطيع بائع التجزئة شراء الباقي، وحتى حينها، يجب أن يكون ربحه "ربحًا شريفًا" فقط."[202]

"... إذا حلَّت نُدرة بالمدينة، كان على الجميع أن يعانوا منها بدرجة أو بأخرى؛ ولكن بعيدًا عن الكوارث، طالما ظلت المدن الحرة موجودة، فلا يمكن لأحد أن يموت في وسطها من الجوع، كما هو الحال للأسف في كثير من الأحيان في عصرنا."

"... كانت المدينة نفسها هي التي اعتادت شراء جميع الإمدادات الغذائية لاستخدام المواطنين. ... كانت شحنات المواد الغذائية "يشتريها بعض المسؤولين المدنيين باسم المدينة، ثم يتم توزيعها على شكل حصص بين التجار المواطنين merchant burgesses، ولم يُسمح لأحد بشراء البضائع التي ترسو في الميناء إلا إذا رفضت السلطات البلدية شرائها."

ظروف العمل.

لاحظوا مرة أخرى الفرق الشاسع بين موقفهم من العمل وموقفنا، وكيف تُحدد القيم الأخلاقية آلية عمل الاقتصاد.

"... في مدينة العصور الوسطى، لم يكن العمل اليدوي رمزًا للدونية؛ بل كان يحمل، على العكس من ذلك، آثارًا للاحترام الكبير الذي كان يحظى به في مجتمع القرية. كان العمل اليدوي في "الأسرار"[12] يُعتبر واجبًا تقيًا تجاه المواطنين: وظيفة عامة (Amt)[13]، مُشرّفة كأي وظيفة أخرى. إن فكرة "العدالة" تجاه المجتمع، و"الحق"

[12] كما تم شرحه في الهامش 9 فإن "الأسرار" تعني الحرف أو المهن في اللغة الإنجليزية في العصور الوسطى.

[13] في اللغة الإدارية الأوروبية القديمة، يشير مصطلح "Amt" (بالألمانية: "مكتب") إلى إدارة حكومية أو مكتب عام. لذا، فإن الكلمة قد تعني ببساطة "وظيفة عامة" (Amt)، واجبًا أو دورًا يؤديه مكتبٌ عام، مثل إصدار التصاريح، أو تحصيل الضرائب، أو إدارة السجلات المدنية.

تجاه كل من المُنتج والمستهلك، والتي قد تبدو باهظة للغاية الآن، قد اخترقت الإنتاج والتبادل. يجب أن يكون عمل الدباغ أو صانع البراميل أو صانع الأحذية "عادلاً" ومنصفًا، كما كتبوا في تلك الأزمان. يجب أن يكون الخشب أو الجلد أو الخيوط التي يستخدمها الحرفي "صحيحة"؛ يجب أن يُخبز الخبز "بعدل"، وهكذا."

"لم يكن الحرفي في العصور الوسطى ينتج لمشترٍ مجهول، أو يطرح بضاعته في سوق مجهولة. بل كان ينتج لنقابته أولًا؛ إذ كانت هناك جماعة من الرجال يعرفون بعضهم بعضًا، ويعرفون تقنيات الحرفة، وعند تحديد سعر كل منتج، كانوا يُقدّرون المهارة في صنعه أو العمل المبذول فيه. ثم كانت النقابة، وليس المُنتِج المنفصل، تعرض السلع للبيع في المجتمع، وهذا الأخير بدوره كان يعرض على جماعة المجتمعات المتحالفة السلع التي كانت تُصدر، ويتحمل مسؤولية جودتها. مع هذا التنظيم، كان طموح كل حرفة ألا تعرض سلعًا رديئة الجودة، وأصبحت العيوب الفنية أو الغش مسألة تهم المجتمع بأكمله، لأنه، كما ينص أحد القوانين، "من شأنه أن يزعزع ثقة الجمهور." وبالتالي، ولأن الإنتاج واجب اجتماعي، يخضع لسيطرة جميع أفراد الجماعة *amitas*، لم يكن من الممكن أن يقع العمل اليدوي في الحالة المتدهورة التي يحتلها الآن، ما دامت المدينة الحرة على قيد الحياة."

"لم يكن هناك فرق بين المعلم master والمتدرب apprentice، أو بين المعلم والعامل الذي أكمل تدريبه (كومباين، جيزيل)[14] (*compayne, Geselle*)، ولكن في مدن العصور الوسطى منذ بداياتها؛ كان هذا الفرق في البداية مجرد فرق في السن والمهارة، لا في الثروة والسلطة. بعد سبع سنوات من التلمذة، وبعد أن يُثبت معرفته وقدراته من خلال عمل فني، يصبح المتدرب معلمًا بنفسه. ولم يكن من الممكن أن يصبح المعلم معلمًا إلا بعد ذلك بكثير، في القرن السادس عشر، بعد أن دمّرت السلطة الملكية المدينة والتنظيم الحرفي، بمحض الميراث أو الثروة. ولكن

[14] Compayne (يرجّح أن أصلها من الفرنسية القديمة أو الإنجليزية الوسطى) تعني رفيقًا أو زميلًا في العمل. Geselle هي كلمة ألمانية تعني العامل المُتمرّس—أي العامل الذي أنهى تدريبه لكنه لم يصل بعد إلى مرتبة "المعلم".

هاتان الكلمتان تُستخدمان تاريخيًا في سياق النقابات الحرفية في أوروبا، حيث كانت هناك مراتب واضحة: متدرّب (Apprentice)، عامل متمرّس (Geselle)، معلم (Master) أو كما نقول بالعامية :أسطة"

هذا كان أيضًا زمن انحطاط عام في الصناعات والفنون في العصور الوسطى."

"في الواقع، كلما تعلمنا المزيد عن المدينة في العصور الوسطى، زاد اقتناعنا بأن العمل لم يتمتع في أي وقت من الأوقات بمثل هذه الظروف من الرخاء والاحترام كما كان الحال عندما كانت الحياة في المدينة في أعلى مستوياتها."

يقول كروبوتكين: "يُسخر منا عندما نقول إن العمل يجب أن يكون ممتعًا، ولكن — ينص قانون كوتنبرغ Kuttenberg في العصور الوسطى على أنه "يجب أن يكون كل فرد راضيًا عن عمله، ولا يجوز لأحد، دون أن يفعل شيئًا (mit nichts thun)، أن يستولي على ما أنتجه الآخرون بالتطبيق والعمل." (ربما ينتبه المستثمرون للأمر!)

الإنجازات

يُشدّد كروبوتكين على الإنجازات الفنية والمعمارية الباهرة التي حققها نظام النقابات، والخسارة التي أعقبت زواله... "... النتائج الهائلة التي تحققت في ظل هذا الشكل الجديد من الاتحاد — في رفاهية الجميع، في الصناعات والفنون والعلوم والتجارة..."

"كانت نتائج تلك الحركة الجديدة التي قامت بها البشرية في المدن في العصور الوسطى هائلة. في بداية القرن الحادي عشر، كانت مدن أوروبا مزوقة عبارة عن مجموعات صغيرة من الأكواخ البائسة، وكنائس بائسة غير متقنة الإنشاء، بالكاد يعرف بناؤوها كيفية بناء قوس؛ كانت الفنون، التي تتكون في الغالب من بعض أعمال النسيج والحدادة، في بداياتها؛ ولم يُوجد تعليم إلا في عدد قليل من الأديرة. بعد ثلاثمائة وخمسين عامًا، تغير وجه أوروبا نفسه. كانت الأرض مليئة بالمدن الغنية، محاطة بأسوار ضخمة سميكة مزينة بأبراج وبوابات، كل منها عمل فني في حد ذاته. وجاء تصميم الكاتدرائيات على طراز فخم وتم تزيينها بغزارة، ورفعت أبراج أجراسها إلى السماء، مظهرة نقاء الشكل وجرأة الخيال التي نسعى جاهدين الآن لتحقيقها."

"هذه هي التغييرات الســـاحرة التي تحققت في أوروبا في أقل من أربعمائة عام. ولا يمكن فهم الخســـائر التي تكبدتها أوروبا جراء فقدان مدنها الحرة إلا بمقارنة القرن السابع عشر بالقرن الرابع عشر أو الثالث عشر. لقد اختفى الرخاء الذي ميّز سابقًا اسكتلندا وألمانيا وسهول إيطاليا. تدهورت الطرق إلى حالة مزرية، وخُلِّيت المدن، واستُعبد العمال، واختفى الفن، واضمحلت التجارة نفسها."

"... شهدت عصور حياة المدن المستقلة أعظم تطور للفكر البشري خلال العصر المسيحي وحتى نهاية القرن الثامن عشر. فعند النظر، على سبيل المثل، إلى لوحة من العصور الوسطى تُصوّر نورمبرغ بأبراجها وصوامعها الشامخة، التي يحمل كل منها طابع الفن الإبداعي الحر، يصعب علينا أن نتصور أن المدينة قبل ثلاثمائة عام لم تكن سوى مجموعة من الأكواخ البائسة."

هذا الإبداع "... انبثق من مفهوم الأخوة والوحدة الذي عززته المدينة... كان له ذلك التعبير عن الحيوية، لأن الحيوية تغلغلت في كل حياة المدينة. كانت الكاتدرائية أو المنزل الجماعي يرمز إلى عظمة الكائن الحي الذي كان كل بنّاء وحجّار هو من بناه... يبدو المبنى في العصور الوسطى — ليس كجهد فردي ساهم فيه آلاف العبيد بالحصة التي خصصها لهم خيال رجل واحد؛ بل ساهمت فيه المدينة بأكملها. ... تتجلى هذه الروح في جميع الأعمال الجماعية ذات المنفعة المشتركة، مثل القنوات والمدرجات وكروم العنب وحدائق الفاكهة حول فلورنسا، أو قنوات الري التي كانت تتقاطع مع سهول لومباردي، أو ميناء جنوة وقنواتها المائية، أو في الواقع، أي أعمال من هذا القبيل أنجزتها كل مدينة تقريبًا."

وربما يكون الأمر الأكثر أهمية هو الآثار المترتبة على التحضّر، وعلى مجتمع الرعاية وعلى الجماعية collectivism. فرفاهية الفرد تعتمد على مراعاة الآخرين له؛ أما التبادلية mutuality فتتضمن الجماعية، والاهتمام بالآخرين والصالح العام، وبالتالي العدالة ومدى الرضا من الترتيبات الاجتماعية. يشير كروبوتكين إلى أن العامل الرئيسي ليس الإيثار أو الحب، بل "الروح الاجتماعية" أو التضامن، أي الرغبة في التفاعل بطرق ممتعة ومفيدة للطرفين. قد تُبقي روابط الحب الأسرة متماسكة، لكن المدينة بحاجة إلى شيء أكثر.

"لا شك أن مدن العصور الوسطى قد قدمت خدمة جليلة للحضارة الأوروبية. فقد حالت دون انجرافها نحو الأنظمة الثيوقراطية والدول الاستبدادية القديمة؛ ومنحتها التنوع والاعتماد على الذات وقوة المبادرة... لماذا أصابها ضعف الشيخوخة في القرن السادس عشر؟... لماذا استسلمت في النهاية..."

الزوال: استيلاء الدولة على السلطة

يقدم كروبوتكين تفاصيل كثيرة عن انهيار النظام القروسطي، من حيث صعود المركزية، أي نشوء دول انتزعت السيطرة من المواطنين والمدن والنقابات... الشغل الشاغل للفوضويين. تشير المقتطفات التالية إلى قيمة رؤاه في صعود المجتمع الرأسمالي، الذي قضى على المحلية localism والجماعة community والتبادلية mutuality.

لطالما احتاجت المدن إلى النضال ضد تعديات الملوك والنبلاء والبابوية، ولكن في النهاية "... تدخلت الدولة... وصادرت ممتلكات النقابات وقضت على استقلالها لصالح بيروقراطيتها."

اضطرت العديد من المدن "... إلى القتال خمسين أو مئة عام متتالية..." لنيل حريتها من اللوردات الغزاة أو الحفاظ عليها. نصّت مواثيق المدن على الشروط التي أُجبر اللوردات المحيطون بها على الموافقة عليها. "كانت المدينة في العصور الوسطى واحة حصينة وسط بلد غارق في خضوع إقطاعي، وكان عليها أن تُفسح المجال لنفسها بقوة أسلحتها." "كان كل مرج، وكل حقل، وكل نهر، وطريق حول المدينة، وكل إنسان على الأرض خاضعًا لسيدٍ ما." "تحملت فلورنسا سبعة وسبعين عامًا لسلسلة من الحروب الدموية، لتحرير كونتادو *contado* [15] المدينة من النبلاء..."

[15] في إيطاليا في العصور الوسطى، كان مصطلح "كونتادو" يشير إلى المنطقة المحيطة بدولة المدينة، وخاصةً الأراضي التي تحكمها البلدية الحضرية ولكنها تقع خارج أسوارها. ويمكن اعتبارها بمثابة المنطقة الريفية التي تزود المدينة بالغذاء والعمالة والموارد.

قضت هذه الدول الناشئة على الاستقلال المحلي.

"على مدى القرون الثلاثة التالية، قامت الدول، سواء في أوروبا أو في جزرها، باستئصال جميع المؤسسات التي كانت تتجلى فيها نزعة المساعدة المتبادلة سابقًا."... "استلبت النقابات من ممتلكاتها وحرياتها، ووُضعت تحت سيطرة موظفي الدولة وهواهم ورشاهم bribery. جُردت المدن من سيادتها، وأُبيدت ينابيع حياتها الداخلية — الشعب، والقضاة المنتخبون والإدارة، والأبرشية الحاكمة والنقابة الحاكمة — ..." "... مناطق بأكملها، كانت مكتظة بالسكان وثرية، أصبحت مكشوفة؛ وأصبحت المدن الغنية أحياءً ضئيلة الأهمية؛ وأصبحت الطرق التي تربطها بالمدن الأخرى غير عملية. وتدهورت الصناعة والفن والمعرفة." دُرِّس في الجامعات ومن على المنابر أن المؤسسات التي اعتاد الرجال من خلالها سابقًا تجسيد احتياجاتهم من الدعم المتبادل لا يمكن التسامح معها في دولة منظمة تنظيمًا سليمًا؛ وأن الدولة وحدها هي القادرة على تمثيل روابط الاتحاد بين رعاياها؛ وأن الفيدرالية و"الخصوصية" عدوان للتقدم، وأن الدولة هي المبادر الوحيد المناسب لمزيد من التنمية. وجرى التأكيد على أنه "... لا يجب أن توجد اتحادات منفصلة بين المواطنين داخل الدولة؛ وأن الأشغال الشاقة والموت هما العقوبتان الوحيدتان المناسبتان للعمال الذين يجرؤون على الدخول في "تحالفات." "يجب على الدولة وحدها، وكنيسة الدولة، الاهتمام بالشؤون ذات المصلحة العامة..." "أما بالنسبة للعمال، فقد عوملت نقاباتهم على أنها غير قانونية حتى في عصرنا هذا تقريبًا في هذا البلد[16]..."

"ترافق ذلك مع مصادرة الأراضي المشاعية. استغرقت الطبقات الحاكمة قرونًا من الجهود الدؤوبة، وإن لم تكن دائمًا ناجحة، لإلغائها ومصادرة الأراضي المشاعية."

"عاشت المجتمعات القروية لأكثر من ألف عام؛ وحيثما لم يُدَمّر الفلاحون بسبب الحروب والابتزاز، حَسّنوا أساليب زراعتهم باستمرار. ولكن مع ازدياد قيمة الأرض، نتيجةً لنمو الصناعات، واكتساب النبلاء، في ظل تنظيم الدولة، سلطةً لم تكن لهم قط في ظل النظام الإقطاعي، استولوا على أفضل أجزاء الأراضي المشاعية،

[16] ربما البلد المعني هو روسيا.

وبذلوا قصارى جهدهم لتدمير المؤسسات المشاعية. إن نمو الدولة على غرار الإمبراطورية الرومانية قد وضع نهايةً عنيفةً لجميع مؤسسات الدعم المتبادل في العصور الوسطى..."

"الكنيسة المسيحية، التي كانت في السابق متمردة على القانون الروماني، والآن حليفة له، سارت في الاتجاه نفسه. ... منحت الكنيسة الحكام الصاعدين قدسيتها، وتوجتهم ممثلين لله على الأرض..."

ارتكبت المدن أخطاءً جسيمة، قوّضت التضامن، لا سيما في إهمالها للفلاحين.

"... ارتكب المواطن في العصور الوسطى خطأً فادحًا في البداية. فبدلاً من النظر إلى الفلاحين والحرفيين الذين تجمعوا تحت حماية أسواره على أنهم مساعدون سيساهمون بدورهم في بناء المدينة — كما فعلوا بالفعل — نشأ انقسام حاد بين "عائلات" سكان المدن الأحرار burghers القدامى والوافدين الجدد. فبالنسبة للأولى، كانت جميع منافع التجارة الجماعية والأراضي الجماعية محفوظة، ولم يتبقَّ للوافدين الجدد سوى حق استخدام مهارات أيديهم بحرية. وهكذا انقسمت المدينة إلى " سكان المدن الأحرار" أو "العامة" "the commonalty" و"السكان". وأصبحت التجارة، التي كانت في السابق جماعية، امتيازًا "لعائلات" التجار والحرفيين."

"الفلاحون، الذين عجزت المدن عن تحريرهم أو رفضت تحريرهم، عندما رأوا عجز سكان المدن الأحرار عن وضع حد للحروب التي لا تنتهي بين الفرسان — والتي دفعوا ثمنها غاليًا — علّقوا آمالهم على الملك أو الإمبراطور أو الأمير العظيم؛ وبينما ساعدوهم على سحق الإقطاعيين الأقوياء، ساعدوهم على تأسيس الدولة المركزية."

وهكذا "... وجدت الأنظمة الاستبدادية الناشئة دعمًا في الانقسامات التي نمت داخل المدن نفسها. كانت الفكرة الأساسية للمدينة في العصور الوسطى عظيمة، لكنها لم

تكن واسعة بما يكفي. لا يمكن حصر المساعدة والدعم المتبادلين في جمعية صغيرة؛ بل يجب أن يمتدا إلى محيطها، وإلا فإن المحيط سيمتص الجمعية."

حروب المدينة "... أصبحت حروب ضد اللوردات، كما ذُكر سابقًا، حروبًا لتحرير المدينة نفسها من اللوردات، لا لتحرير الفلاحين. تركت للسيد حقوقه على القرويين، بشرط ألا يُضايق المدينة بعد الآن وأن يصبح شريكًا مع سكان المدن الأحرار. في هذه الأثناء، كان اللوردات داخل المدن..."... يكرهون الخضـــوع لمحكمة الحرفيين والتجار البسطاء..."،

"كان الخطأ الأكبر والأشـــد فتكًا الذي ارتكبته معظم المدن هو بناء ثرواتها على التجارة والصـــناعة، مع إهمال الزراعة. وهكذا كرروا الخطأ الذي ارتكبته مدن اليونان القديمة، وسقطوا فيه في نفس الجرائم. إن نفور العديد من المدن من الأرض دفعها بالضرورة إلى سياسة معادية للأرض... ورطتها السياسة التجارية في مشاريع بعيدة. تم تأسيس المستعمرات..."

"لمائتي أو ثلاثمائة عام، علّموا من على المنابر، ومن على كراســي الجامعات، ومن على مقاعد القضـــاة، أن الخلاص يجب أن يُطلب في دولة مركزية قوية، خاضـــعة لسلطة شبه إلهية؛ وأن رجلاً واحدًا يستطيع، بل يجب، أن يكون منقذ المجتمع، وأنه باسم الخلاص العام، يستطيع ارتكاب أي عنف: حرقُ الرجال والنساء على الخازوق، وإهلاكهم تحت عذابات لا توصف، وإغراق مقاطعات بأكملها في أشد البؤس قسوة. ولم يفشلوا في إعطاء دروس عملية في هذا الشأن على نطاق واسع، وبقسوة غير مســبوقة، أينما وصـــل ســيف الملك ونار الكنيســـة، أو كليهما معًا. وبهذه التعاليم والأمثلة، التي تكررت باستمرار وفرضت على الرأي العام، شُكّلت عقول المواطنين أنفسهم في قالب جديد. بدأوا لا يجدون سلطة مفرطة في اتساعها، ولا قتلًا تدريجيًا في قسوته، بمجرد أن يكون "للسلامة العامة." ومع هذا التوجه الفكري الجديد، وهذا الإيمان الجديد بسـلطة الفرد الواحد، تلاشـى مبدأ الفيدرالية القديم، وتلاشـت عبقرية الجماهير الخلاقة. انتصرت الفكرة الرومانية، وفي مثل هذه الظروف، وجدت الدولة المركزية في المدن فريسة جاهزة.

"عندما خضعت مدن العصور الوسطى في القرن السادس عشر على يد الدول العسكرية المتنامية، دُمِّرت جميع المؤسسات التي كانت تجمع الحرفيين والمعلمين والتجار في النقابات والمدن تدميرًا عنيفًا. أُلغي الحكم الذاتي والسلطة القضائية لكلٍّ من النقابة والمدينة؛ وأصبح قَسَم الولاء بين أعضاء النقابة جريمةً تُعَدُّ جنايةً تجاه الدولة؛ وصودرت ممتلكات النقابات كما صودرت أراضي المجتمعات القروية؛ وتولَّت الدولة التنظيم الداخلي والفني لكل مهنة. وسُنَّت قوانين، ازدادت صرامةً تدريجيًا، لمنع الحرفيين من الجمع بأي شكل من الأشكال بين ما كان في السابق القوة الحيوية للحياة والصناعة في العصور الوسطى، والذي اختفى منذ زمن طويل تحت وطأة الدولة المركزية الساحقة."

اليوم.

في نهاية الكتاب، يُفصّل كروبوتكين المؤسسات والممارسات العديدة التي لا تزال قائمة حتى اليوم، والتي تُمارس وفق الممارسات الجماعية التي كانت سائدة في مجتمع العصور الوسطى. ومن الأمثلة الجيدة على ذلك القرى السويسرية.

"ثلثا مروج جبال الألب وثلثا غابات سويسرا حتى الآن أراضٍ مشتركة؛ وعدد كبير من الحقول والبساتين وكروم العنب ومستنقعات الخث[17] peat bogs والمحاجر، وما إلى ذلك، مملوكة ملكية مشتركة. في مقاطعة ڤو Vaud، حيث يواصل جميع أصحاب المنازل المشاركة في مداولات مجالسهم البلدية المنتخبة، تنبض روح الجماعة بقوة. مع نهاية الشتاء، يذهب جميع شباب كل قرية للإقامة بضعة أيام في الغابات، لقطع الأخشاب وجلبها إلى أسفل المنحدرات الحادة، حيث يُقسّم الخشب وحطب الوقود بين جميع الأسر أو يُباع لصالحهم. هذه الرحلات هي احتفالات حقيقية بالعمل الشاق. على ضفاف بحيرة ليمان Lake Leman، لا يزال جزء من العمل المطلوب للحفاظ على مصاطب الكروم يُنفّذ على نحو مشترك؛ وفي الربيع، عندما يُهدد مقياس الحرارة بالهبوط تحت الصفر قبل شروق الشمس، يوقظ الحارس

[17] الخث (Peat): مادة عضوية تتكون من بقايا نباتات متحللة جزئيًا، تتراكم في بيئات رطبة وفقيرة بالأوكسجين.

جميع أصحاب المنازل، الذين يشعلون نيران القش والروث ويحمون كرومهم من الصقيع بسحابة اصطناعية. في جميع المقاطعات تقريبًا، تمتلك المجتمعات القروية ما يُسمى منفعة المواطن "Bürgernutzen" — أي أنهم يمتلكون عددًا مشتركًا من الأبقار لتزويد كل أسرة بالزبدة؛ أو يحتفظون بحقول أو كروم مشتركة، يُقسّم إنتاجها بين سكان البلدة، أو يؤجرون أراضيهم لصالح المجتمع... ومع ذلك، فإن سويسرا ليست استثناءً في أوروبا بأي حال من الأحوال، لأن نفس المؤسسات والعادات موجودة في قرى فرنسا وإيطاليا وألمانيا والدنمارك."

بعض الأفكار حول الكتاب.

إنها حجةٌ مؤثرةٌ للغاية ضد الافتراض المُسلَّم به بأن البشر تنافسيون وعدوانيون، وبالتالي علينا قبول أن المجتمع كذلك. وهذه الحجة تتماشى مع أعمال پولاني وتوني Polanyi and Tawney، لا سيما فيما يتعلق بنظرة العصور الوسطى للعالم، والتفكير الاقتصادي، والأخلاق، ومدى اختلافها الكبير عن الأيديولوجية الرأسمالية السائدة حاليًا. ويتناول كتاب "النوع البشري" الصادر حديثًا لروتگر بريغمان Human Kind by Rutger Bregman القضية نفسها بالتفصيل.[18]

من المثير للاهتمام أن كروبوتكين يبدو أنه لا يشير إطلاقًا إلى ماركس. يعتبر الأناركيون (الفوضويون) رواية كروبوتكين نقدًا قويًا للدولة، بينما يرحب الماركسيون بامتلاك الدولة لسلطة عظمى. لذا، يُمثل هذا الكتاب حجة قوية ضد الاشتراكية، وخاصةً من منظور "البيئة الاجتماعية،" أي الأهمية الحيوية للعلاقات الاجتماعية، والعادات، والقواعد، والتضامن، والأخلاق، وما إلى ذلك، في تحديد الأداء، والصمود، ونوعية الحياة.

يرتبط هذا بتقصير ماركس في مراعاة أهمية "الثقافة،" لا سيما في عملية الانتقال إلى مجتمع فاضل. يُعدّ وصف كروبوتكين المُطوّل للقرى والمدن والنقابات في العصور الوسطى دليلاً قاطعًا على الأهمية الاجتماعية للأفكار والقيم والعادات والأخلاق، إلخ، في

[18] Rutger Bregman, *Humankind: A Hopeful History* (Bloomsbury Publishing, 1st Edition, 2021)

بناء مجتمع فاضـل. يشـرح أفينيري Avineri (1968)[19] كيف أهمل ماركس هذا المجال، مُفترضـاً إمكانية الاهتمام به بعد الثورة. (يرى الأناركيون أنه يجب التعامل معه قبل الثورة؛ انظر(الطريق الأبسط: نظرية الانتقال[20] Transition theory :TSW).

العلاقة المُحيّرة بين رواية كروبوتكين والنظرية الماركسية.

ليس من الواضح كيف ارتبطت مناقشته [كروبوتكين] لزوال المجتمع في العصور الوسطى، والذي يناقشـه من حيث القضـاء عليه بصـعود الدولة، برواية ماركسـية لصـعود الرأسـمالية. كما أنه ليس من الواضـح لماذا لا يُشـير إلى النظرية الماركسـية في هذه القضـية. يتناول ماركس تدمير المجتمع في العصور الوسطى من حيث صعود الطبقة الرأسمالية إلى السلطة، لذا كان من الجيد معرفة كيف رأى كروبوتكين العلاقات السـببية بين الطبقة الرأسـمالية والإقطاعيين والقرى والدولة. صحيح أن روايته تتناول الصراع الطبقي (مع أنه لا يستخدم المصـطلح)، أي الصـراع بين القرويين والإقطاعيين بشـكل خاص، لكنه لا يناقش مكانة الطبقة الرأسـمالية في الصـورة السـببية (أو الطبقات ذات الصـلة، مثل التجار). نقده موجّه للدولة، وليس للرأسـماليين. لكن الماركسـي سـيقول (عن حق) إن الطبقة (أو الطبقات) الحاكمة هي التي حرَّكت الأمور، وخاصـة عمليات التسييج enclosures التي انتزعت من الناس أراضـيهم التقليدية، وإن سيطرتها على الدولة هي الوسيلة، على سبيل المثل، لتمرير مئات قوانين التسـييج عبر البرلمـانات. مرة أخرى، يُركّز كروبوتكين على الأقل على مركزية الصـراع الطبقي في هذه الأحداث، لكنه لا يناقش أو يشـرح أسـباب نشـوء الدول أو ازدياد قوتها الساحقة بسرعة. مع ذلك، يبدو أن الروايتين غير متعارضتين، ويمكن دمجهما بسهولة.

[19] Shlomo Avineri, *The Social and Political Thought of Karl Marx* (Cambridge University Press, 1st Edition, 1968)

[20] نظرية "الطريق الأبسـط" للتحول طوّرها تيد ترينر، والتي تدعو إلى تغيير جذري في المجتمع نحو الاسـتدامة والعيش المتقشـف. نظرية "الطريق الأبسـط" ترى أن المجتمعات الصـناعية الحديثة يجب أن تتحول بعيدًا عن الاسـتهلاك المفرط والاقتصـاد القائم على النمو، نحو نمط حياة محلي، تعاوني، وبسـيط ماديًا. وهي ترفض الحلول التقنية وحدها، وتؤكد أن التوازن البيئي الحقيقي يتطلب تغييرًا جذريًا في البنية الاجتماعية والاقتصادية.

لعلّ الجانب الأكثر إثارة للإعجاب في الكتاب يكمن في تصويره للأهمية الحاسمة لـ"الإيكولوجيا الاجتماعية" في مجتمع العصور الوسطى. لقد كان مزيجًا بالغ التعقيد والقوة من الأفكار والقيم والعادات والالتزامات والأعراف والتقاليد والأخلاق الراسخة، التي ربطت الجميع بقوة في تفكير وسلوك متبادل المنفعة. كان هناك، كما يُفصّل پولاني وتوني[21] Polanyi and Tawney، اقتصادٌ "أخلاقي" شديد، لم يكن فيه لاعتبارات المال والربح والتسويق وتراكم الثروة مكان. كان الموقف السائد هو "الأخوة"، والالتزام برفاهية الآخرين والمجتمع. يناقش كروبوتكين كيف أن صعود المركزية، وخاصةً في شكل الدولة، يُقصي ويُدمّر الأخلاقية "الروحية" القوية التي تتغلغل في مجتمع متماسك... تخيّلوا عندما يأتي وول مارت[22] Walmart إلى المدينة. يُدرك الإنسان الفوضوي أن هذا ما يحدث عندما تكون هناك مركزية للوظائف والسلطة. ولعلّ أعظم خطيئة للاشتراكية هي سذاجتها السوسيولوجية.

لذا، يُعدّ الكتاب حجة قاطعة لصالح الفوضوية وضد الاشتراكية. لا يُمكن ترسيخ ثقافة الاهتمام بـ"الإخوة" والمجتمع إلا في مجتمعات ذاتية الحكم، تضم مواطنين مسؤولين، ملتزمين بالصالح العام وبالأنظمة التي طوروها لتوفير احتياجاتهم. إن من يسعون إلى مركزية السلطة والوظائف يرتكبون خطأً فادحًا؛ فالمركزية تمنع المواطنة *التشاركية* (أو تُعيد تعريف المواطنة بأنها طاعة للسلطات)، وبالتالي تُلغي المسؤوليات والقرارات والأفعال والتبادلية، تاركةً ضواحي سكنية مليئة بالمستهلكين الذين لا تربطهم أي صلة ببعضهم البعض، ولا يهتمون بمجتمعهم.

ومن هنا، يُدرك كروبوتكين تمامًا الفرق بين الفرد المنعزل، المُنافس والوصولي الطمّاع، والمؤسسات الاجتماعية المُصاحبة له، لا سيما "الفائز يستأثر بكل شيء" للاقتصاد النيوليبرالي، من جهة، وبين المجتمع community من جهة أخرى. أي أخلاقيات تُركز

[21] للتفاصيل راجع "تيد ترينر: ملاحظات حول كتاب كارل پولاني: التحول العظيم،" موقع شبكة الاقتصاديين العراقيين: https://iraqieconomists.net/ar/wp-content/uploads/sites/2/2025/07/Karl-Polanyi-Ted-Trainer-Review-IEN-Final.pdf

[22] وول مارت شركة عملاقة متعددة الجنسيات لتجارة التجزئة، مقرها الرئيسي في ولاية أركنساس، وهي معروفة بسلسلة ضخمة من المتاجر الكبرى ومتاجر البقالة في جميع أنحاء الولايات المتحدة و23 دولة أخرى.

على القيم الاجتماعية كالاهتمام بالصالح العام، ورفاهية الجميع، والمُستضعفين، والعدالة الاجتماعية، ورؤية الجميع يزدهرون. بعبارة أخرى، تُمثل هذه الأخلاقيات حجة قوية لصالح الجماعية التشاركية المحلية على نطاق ضيق. ■

* تيد ترينر Ted Trainer، محاضر متقاعد، كلية الخدمة الاجتماعية بجامعة نيو ساوث ويلز، استراليا.

من الشخصيات البارزة في عالم الاستدامة والحياة البديلة. وُلد عام 1941، واشتهر بدفاعه عن النمو الاقتصادي الصفري degrowth، والفوضوية البيئية، والبساطة الطوعية. من أهم مساهماته تطوير مفهوم "الطريق الأبسط"The Simpler Way، وهو إطار عملٍ للعيش الكريم مع تقليل استهلاك الموارد بشكلٍ كبير. ألّف العديد من الكتب والمقالات التي تنتقد الاستهلاكية وتقترح بدائل مستدامة ومجتمعية. Ted Trainer - Wikipedia

** كاتب في قضايا التأمين

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين. يسمح بإعادة النشر بشرط الإشارة إلى المصدر.
/http://iraqieconomists.net/ar